الزمخشـري

أعـلام التفسيـر

الزمخشري الجار الله
صاحب تفسير: " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل "

هو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري - ولد في السابع والعشرين من شهر رجب سنة 467هـ " سبع وستين وأربعمائة " بزمخشر[1]، وتلقى العلم في بلاده، ورحل إلى بخارى في طلبه، وأخذ الأدب عن شيخه منصور أبي مضر، ثم رحل إلى مكة وجاور بها زمانًا، فقيل له " جار الله " وبها ألَّف كتابه في التفسير " الكشاف في حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " وأصابه خراج في رجله فقطعها وصنع عوضها رجلاً من خشب وكان إذا مشى ألقى عليها ثيابه الطوال فيظن من يراه أنه أعرج. وتوفي الزمخشري سنة 538هـ " ثمان وثلاثين وخمسمائة "، بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، ورثاه بعضهم بأبيات منها:

فأرض مكة تذري الدمع مقلتها :: حزنًا لفرقة جار الله محمود

وكانت له بعض الأشعار الغير محكمة فقد ذكر التاج الكندي أنه رآه على باب الإمام أبي منصور بن الجواليقي.

وقال الكمال الأنباري لما قدم الزمخشري للحج، أتاه شيخنا أبو السعادات بن الشجري مهنئا بقدومه، وقال:

كانت مساءلة الركبان تخبرني عن أحمد بن علي أطيب الخبر :: حتى التقينا فلا والله ما سمعت بأحسن مما قد رأى بصري أذني

وأثنى عليه، ولم ينطق الزمخشري حتى فرغ أبو السعادات،

(1) وهي قرية كبيرة من قرى خوارزم.

فتصاغر له، وعظمه، وقال: إن زيد الخيل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع صوته بالشهادتين، فقال له: يا زيد كل رجل وصف لي وجدته دون الصفة إلا أنت، فإنك فوق ما وصفت. وكذلك الشريف ودعا له وأثنى عليه.

قلت: روى عنه بالإجازة أبو طاهر السلفي، وزينب بنت الشعري.

وروى عنه أناشيد إسماعيل بن عبد الله الخوارزمي، وأبو سعد أحمد بن محمود الشاشي، وغيرهما.

وكان رأسا في البلاغة والعربية والمعاني والبيان، وله نظم جيد.

قال السمعاني: أنشدنا إسماعيل بن عبد الله، أنشدني الزمخشري لنفسه يرثي أستاذه أبا مضر النحوي:

وقائلة ما هذه الدرر التي :: تساقطها عيناك سمطين
فقلت هو الدر الذي قد حشا به :: سمطين
أبو مضر أذني تساقط من :: عيني

أنبأني عدة عن أبي المظفر بن السمعاني، أنشدنا أحمد بن محمود القاضي بسمرقند، أنشدنا أستاذي محمود بن عمر:

ألا قل لسعدى ما لنا فيك من :: وما تطبينا النجل من أعين
وطر :: البقر
فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت :: عيونهم والله يجزي من
مليح ولكن عنده كل جفوة ولم :: اقتصر
ولم أنس إذ غازلته قرب :: أر في الدنيا صفاء بلا كدر
روضة :: إلى جنب حوض فيه للماء
فقلت له جئني بورد وإنما :: منحدر
فقال انتظرني رجع طرف أجئ :: أردت به ورد الخدود وما شعر
فقال ولا ورد سوى الخد :: به فقلت له هيهات ما في
حاضر :: منتظر
فقلت له إني قنعت بما حضر

علمه ومؤلفاته:

والزمخشري إمام من أئمة اللغة والمعاني والبيان، وكثيرًا ما يجد القارئ في كتب النحو والبلاغة استشهادات له من كتبه للاحتجاج بها، فيقولون: قال الزمخشري في كشافه، أو في أساس البلاغة، وهو صاحب رأي وحجة في كثير من مسائل العربية، وليس من هؤلاء النفر الذين ينهجون نهج غيرهم فيجمعون وينقلون، ولكنه صاحب رأي يقتفي غيره أثره وينقل عنه، وله تصانيف في الحديث والتفسير والنحو واللغة والمعاني والبيان وغير ذلك، منها:

1 - كتابه في تفسير القرآن " الكشاف ".

2 - والفائق في تفسير الحديث.

3 - والمنهاج في الأصول.

4 - والمفصل في النحو.

5 - وأساس البلاغة في اللغة.

6 - ورءوس المسائل الفقهية.

7 - و " ربيع الأبرار ".

8 - و " مشتبه أسامي الرواة ".

9 - وكتاب " النصائح ".

10 - و " ضالة الناشد ".

مذهبه وعقيدته:

والزمخشري حنفي المذهب، معتزلي العقيدة، يؤوِّل الآيات وفق مذهبه وعقيدته بلحن لا يدركه إلا الخاصة، ويسمِّى المعتزلة: إخوانه في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية [1].

(1) مباحث في علوم القرآن، ص 397.

تفسيره: وكتاب الكشاف للزمخشري من أشهر كتب المفسرين بالرأي، الماهرين في اللغة، وينقل عنه الآلوسي، وأبو السعود، والنسفي، وغيرهم من المفسرين بدون نسبة إليه، واعتزالياته في التفسير قد تولى التنقيب عنها العلامة أحمد المنير. وسماها بالانتصاف، وفيها يناقش الزمخشري فيما أورده من العقائد على مذهب المعتزلة ويورد ما يقابلها، كما يناقشه في كثير من أبواب اللغة، وقد طبعت المكتبة التجارية بمصر " الكشاف " طبعة أخيرة رتبها مصطفى حسين أحمد، وذُيِّلت بأربعة كتب، الأول: " الانتصاف " السابق، والثاني " الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف " للحافظ ابن حجر العسقلاني، والثالث: " حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف " كـ " الانتصاف "، والرابع: " مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف " للمرزوقي المذكور - وقد ضمَّن تفسيره كثيرًا من عقائد المعتزلة على طريق الإشارة، وقد ذكرنا قبل ما نُقِل عن البلقيني أنه قال: استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش [1].

والذي يمكن أن نقوله عن الزمخشري وكتاباته لا سيما تفسيره المسمي " الكشاف " :

1 - الزمخشري إمام من أئمة المعتزلة وقد أودع في كشافه مقالات المعتزلة وصاغها باسلوب أدبي وبلاغة رائعة حتى أصبح اكتشافها عسيراً على كثير من طلبة العلم. وقد تتبع ه في ذلك ابن المنير، والطيبي وبينا كثيراً من تلك ا لاعتزاليات، وفاتهما بعض الشيء.

(1) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، 2 / 2279 - 280، مباحث في علوم القرآن، ص 398.

2 - الزمخشري عفا الله عنه بدأ كتابه بقوله: (الحمد لله الذي خلق القرآن) فنبهه بعض المقربين منه إلى أن هذا المطلع مدعاة إلى النفور من الكتاب فغيره، ذكر ذلك الطيبي في فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب.

3 - يلحظ القار ئ للكشاف قلة الآثار، وكثرة الآراء الكلامية والعبارات الموحشة.

4 - الزمخشري زهد بالأحاديث النبوية فلم يورد منها إلا القليل وقد يورد قطعة من الحديث دون إشارة إلى أنه حديث، وكثير من تلك الأحاديث موضوعة أو ضعيفة، وقد تتبعه فيها ابن حجر في كتابه " الشاف الكافي ".

5 - عرض في تفسيره لكثير من القراءات ولم يقتصر على الثابت منها بل شحنه بالقراءات الشاذة.

6 - اعتني بالبلاغة عناية فائقة، واهتم باللغة والإعراب.

7 - لم يتوسع في ذكر الروايات الإسرائيلية.

8 - في كشاف الزمخشري فوائد لا توجد في غيره، و طوام لا توجد إلا فيه.

وخلاصة القول: أنه يعتبر تفسيره من أمهات كتب التفسير بالرأي، كما أن تفسير الطبري من أمهات التفسير بالمأثور، بيد أن الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد، متظاهرا بالاعتزال، فيقرأ كتابه على حذر، قال السبكي: (واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيرا، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة).

لذا ، ينصح قارئ الكشاف بقراءته مع أحد حواشيه ، وأحسنها حاشية (فتوح الغيب) للإمام شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي، أو حاشية الكشاف على الكشاف لسراج الدين البلقيني ، أو حاشية (الانتصاف) لناصر الدين ابن المنير الإسكندري.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

- قصة تأليف الكشاف:

قبل الخوض في التعريف بالكشاف للزمخشرى، أرى أن أسوق لك قصة تأليفه وما كان من الزمخشرى من التردد بين الإقدام عليه والإحجام عنه أولاً.. ثم العزم المصمم منه على تأليفه حتى أخرجه للناس كتاباً جامعاً نافعاً.

أسوق هذه القصة نقلاً عن الزمخشرى في مقدمة كشافه، فقد أوضح ما كان منه أول الأمر، وكشف عن السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه في التفسير فقال: " ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلىَّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحُجُب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقاً إلى مُصنَّف يضم أطرافاً من ذلك، حتى اجتمعوا إلى مقترحين أن أُملى عليهم الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد. والذي حدانى إلى الاستعفاء - على علمى أنهم طلبوا ما الإجابة إليه علىَّ واجبة، لأن الخوض فيه كفرض العَيْن - ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر همهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمى البيان والمعانى، فأمليت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال

والجواب، طويل الذيول والأذناب، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم مناراً ينتحونه، ومثالاً يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله، فتوجهت تلقاء مكة، وجدت في مجتازى بكل بلد مَن فيه مسكة من أهلها - وقليل ما هم - عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملَى، متطلعين إلى إيناسه، حراصاً على اقتباسه، فهزَّ ما رأيت من عِطفى، وحرَّك الساكن من نشاطى، فلما حططت الرَحْل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدرجة الحسنية: الأمير الشريف، الإمام شرف آل رسول الله، أبى الحسن، ابن حمزة بن وهاس - آدم الله مجده - وهو النكتة والشامة في بنى الحسن، مع كثرة محاسنهم، وجموم مناقبهم، أعطش الناس كبداً، وألهبهم حشىً، وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يُحدِّث نفسه في مدة غيبتى عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادة، بقطع الفيافى وطى المهامه، والإفادة علينا بخوارزم، ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض، فقلت : قد ضاقت على المستعفى الحيل، وعيّت به العلل. ورأيتنى قد أخذت منى السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر، ووفَّق الله وسدَّد، ففُرِغمنه في مقدار مدة خلافة أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه وكان يُقَدَّر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة. وما هى إلا آية من آيات هذا البيت المحرَّم، وبركة أُفيضت علىّ من بركات هذا الحرم المعظَّم. أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجينى، ونوراً لى على الصراط يسعى بين يدى ويمينى، ونِعْم المسؤول ".

هذه قصة تأليف الكشاف كما يرويها الزمخشرى نفسه.

قيمة الكشاف العلمية:

وأما قيمة هذا التفسير. فهو - بصرف النظر عما فيه من الاعتزال - تفسير لم يُسبق مؤلفه إليه، لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما ظهر فيه من جمال النظم القرآنى وبلاغته، وليس كالزمخشرى مَن يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم. لا سيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب. والمعرفة بأشعارهم. وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة، والبيان والإعراب، والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العلمى والأدبى على تفسير الكشاف ثوباً جميلاً، لفت إليه أنظار العلماء وعلَّق به قلوب المفسِّرين. هذا.. وقد أحس الزمخشرى إحساساً قوياً بضرورة الإلمام بعلمى المعاني والبيان قبل كل شئ، لمن يريد أن يُفسِّر كتاب الله عَزَّ وجلَّ، وجهر بذلك وأنهضها بما يُبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سبكها، علم التفسير، الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم - كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن - فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بَزَّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه، واللُّغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شئ من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما : علم المعاني، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حُجَّة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذاً من

سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رَجَعَ زماناً ورُجِعَ إليه، ورَدَّ ورُدَّ عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدَّماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقَّادها، يقظان النفس، دراً كاللمحة وإن لطف شأنها، منتبهاً على الرمزة وإن خفى مكانها، لا كزَّاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يُرتَّب الكلام ويُؤلَّف، وكيف يُنظَّم ويُرصَّف، طالما دفع إلى مضايقه. ووقع في مداحضه ومزالقه ".

وفي الحقيقة أن الزمخشرى قد جمع كل هذه الوسائل التي لا بد منها للمفسِّر، فأخرج للناس هذا الكتاب العظيم في تفسير القرآن " الكشاف عن حقائقه، المخلص من مضايقه، المطلع على غوامضه، المثبت في مداحضه، المُلخَّص لنكته ولطائف نظمه، المُنَقِّر عن فِقَره وجواهر علمه، المكتنز بالفوائد المفتنَّة التي لا تُوجد إلا فيه، المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه، مع الإيجاز الحاذف للفضول، وتجنب المستكرة المملول، ولو لم يكن في مضمونه إلا إيراد كل شيء على قانونه، لكفى به ضالة ينشدها محققة الأخبار، وجوهرة يتمنى العثور عليها غاصة البحار ".

ولما علم الزمخشرى أن كتابه قد تحلَّى بهذه الأوصاف قال متحدثاً بنعمة الله:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعَمْرى مثل كشافى
إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافى

وإذا كان الزمخشرى قد اعتزَّ بكشافه، وبلغ إعجابه به إلى حد جعله يقول فيه ما قال من تقريظ له، وإطراء عليه، فإنَّا نعذره في ذلك

ولا نلومه عليه، فالكتاب واحدٌ في بابه، وعَلَمٌ شامخ في نظر علماء التفسير وطُلابه، ولقد اعترف له خصومه بالبراعة وحسن الصناعة، وإن أخذوا عليه بعض المآخذ التي يرجع أغلبها إلى ما فيه من ناحية الاعتزال، وإليك مقالات بعض العلماء في الكشاف:

مقالة ابن بشكوال في الكشاف:

وإنَّا لنجد في مقدمة تفسير أبى حيان، مقارنة للحافظ أبى القاسم ابن بشكوال، بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشرى، ووصفاً رقيقاً وتحليلاً عميقاً لكتاب الكشاف يقول فيها: " وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص. وكتاب الزمخشرى ألخص وأغوص، إلا أن الزمخشرى قائل بالطفرة، ومقتصر من الذؤابة على الوفرة، فربما سنح له آبى المقادة فأعجزه اعتياصه، ولم يمكنه لتأنيه اقتناصه، فتركه عقلاً لمن يصطاده، وغفلاً لمن يرتاده. وربما ناقض هذا المنزع، فثنى العنان إلى الواضح والسهل اللائح، وأجال فيه كلاماً، ورمى نحو غرضه سهاماً. هذا مع ما في كتابه من نصرة مذهبه، وتقحم مرتكبه، وتجشم حمل كتاب الله عَزَّ وجَلَّ عليه، ونسبة ذلك إليه، فمغتفر إساءته لإحسانه، ومصفوح عن سقطه في بعض، لإصابته في أكثر تبيانه ".

مقالة الشيخ حيدر الهروى:

كذلك نجد للشيخ حيدر الهروى - أحد الذين عَلَّقوا على الكشاف - وصفاً دقيقاً لكتاب الكشاف وهذا نصه:

وبعد، فإن كتاب الكشاف، كتاب عَلِيُّ القدر رفيع الشأن، لم يُرَ مثله في تصانيف الأوَّلين، ولم يرد شبيهه في تآليف الآخرين. اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، واجتمعن على محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكلمة المفلقين. ما قصَّرَ في قوانين التفسير وتهذيب براهينه. وتمهيد قواعده وتشييد معاقده. وكل كتاب

بعده في التفسير، ولو فُرِض أنه لا يخلو عن النقير والقطمير، إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا يُوجد فيه شيء من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يَقتفى أثره، ويَسأل خبره. وقلَّما غيَّر تركيباً من تراكيبه إلاوقع في الخطأ والخطل، وسقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر، فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدى النظار، فاشتهر في الأقطار، كالشمس في وسط النهار، إلا أنه لإخطائه سلوك الطرق الأدبية، وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال. أصابته عين الكلالة. فالتزم في كتابه أُموراً أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواءه، فتكدرت مشارعه الصافية، وتضيَّقت موارده الضافية، وتزلزلت رتبة العالية.

منها: أنه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتعسفات جامدة، وصرف الآية - بلا نكتة بلاغية لغير الضرورة - عن الظاهر، وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى، وليته يكتفى بقدر الضرورة، بل يبالغ في الإطناب والتكثير، لئلا يوهم بالعجز والتقصي، فتراه مشحوناً بالاعتزالات الظاهرة التي تتبادر إلى الإفهام، والخفية التي لا تتسارق إليها الأوهام، بل لا يهتدى إلى حبائله إلا ورَّاد بعد وراَّد من الأذكياء الحذَّاق، ولا ينتبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الآفاق. وهذه آفة عظيمة ومصيبة جسيمة.

ومنها: أنه يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده. ونِعْمَ ما قال الرازى في تفسير قوله تعالى: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤].. خاض صاحب الكشاف في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالى، وكتب فيها ما لا يليق بعاقل أن يكتب مثله في كتب الفحش، فهب أنه اجترأ على الطعن في أولياء الله تعالى، فكيف اجتراؤه على كتبه ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام

الله المجيد.

ومنها: أنه أورد فيه أبياتاً كثيرة، وأمثالاً غزيرة بنى على الهزل والفكاهة أساسها. وأورد على المزاح البارد نبراسها. وهذا أمر من الشرع والعقل بعيد، لا سيما عند أهل العدل والتوحيد.

ومنها: أنه يذكر أهل السُّنَّة والجماعة - وهم الفرقة الناجية - بعبارات فاحشة، فتارة يُعبِّر عنهم بالمُجَبِّرة، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر والإلحاد. وهذه وظيفة السفهاء الشطار، لا طريقة العلماء الأبرار ".

مقالة أبى حيان:

ونجد أبا حيان صاحب البحر المحيط عند تفسيره لقوله تعالى :{قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾} [النمل: ٤٩].. يتعقب الزمخشرى في تفسيره لقوله تعالى:{وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ }.. ثم يصفه بقوله: " وهذا الرجل وإن كان أُوتِىَ من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ، ففى كتابه في التفسير أشياء منتقدة، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان بكتاب الله، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشرى، فذكرت أشياء من محاسنه، ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك مَن يقف على كتابى هذا، ويتنبه على ما تضمنه من القبائح، فقلت بعد ذكر ما مدحته به:

ولكنه فيه مجال لناقد :: وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث : يعزو إلى المعصوم ما ليس
جاهلاً :: لائقا
ويشم أعلام الأئمة ضلة : لا سيما إن أولجوه المضايقا
ويُسهب في المعنى الوجيز :: تكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا
دلالة : وكان محباً في الخطابة وامقا

يُقوّل فيها الله ما ليس قائلا :: فليس لما قد ركّبوه موافقا
ويخطئ في تركيبه لكلامه : ليُوهم أغماراً وإن كان سارقا
وينسب إبداء المعاني لنفسه :: يُجَوّز إعراباً أبى أن يطابقا
ويخطئ في فهم القرآن لأنه : وآخَر عاناه فما هو لاحقا
وكم بين مَن يؤتى البيان :: لمذهب سوء فيه أصبح مارقا
سليقة : مغارب تخريق الصبا ومشارقا
ويحتال للألفاظ حتى يديرها :: لسوف يُرى للكافرين مرافقا
فيا خسرة شيخ تخرَّق صيته : ”
لئن لم تداركه من الله رحمة ::
:
::
:
::
:
::
:
::
:

وأحسب أن القارئ لا يفوته أن يدرك ما في الوصف من قسوة على الزمخشرى، وما فيه من اتهمه بقِلَّة بضاعته في البيان والعربية، مع أنه سلطان هذه الطريقة في التفسير غير مدافع.

مقالة ابن خلدون:

وهذا هو العلاَّمة ابن خلدون، نجده عندما تكلم عن القسم الثاني من التفسير وهو ما يرجع إلى اللسان، من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب. يقول: ” ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشرى من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلِّفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتى بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرَض له في آى القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السُّنَّة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكانته، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق

باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السُّنِّية، محسناً للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان. ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين الطيبى من أهل توريز، من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشرى هذا، وتَتَبَّع ألفاظه، وتَعَرَّض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تُزيفها، وتُبيِّن أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السُّنَّة، لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، وفوق كل ذى علم عليم ".

مقالة التاج السبكى:

وأخيراً.. فهذا هو العلاَّمة تاج الدين السبكى يقول في كتابه " معيد النِعَم ومبيد النِقَم " : " واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنِّفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متاجر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسئ أدبه على أهل السُّنَّة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله، ولقد كان الشيخ الإمام - يعنى والده تقى الدين السبكى - يقرأه فإذا انتهى إلى كلامه في قوله تعالى: {إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩} [التكوير: ١٩]، أعرض عنه صفحاً، وكتب ورقة حسبة سماها " سبب الانكفاف، عن إقراء الكشاف " وقال فيها: قد رأيت كلامه على قوله تعالى: {عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ} [التوبة: ٤٣]، وكلامه في سورة التحريم وغير ذلك من الأماكن التي أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى، سيدنا رسول الله ﷺ، فأعرضتُ عن إقراء كتابه حياءً من النبى ﷺ، مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة ".

هذه هى شهادات بعض العلماء في تفسير الكشاف بما له وما عليه. ومهما يكن من شئ، فالكل مجمع عن أن الزمخشرى هو سلطان الطريقة اللُّغوية في تفسير القرآن، وبها أمكنة أن يكشف عن

وجه الإعجاز فيه، ومن أجلها طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب، واشتهر في الآفاق، واستمد كل من جاء بعده من المفسِّرين من بحره الزاخر، وارتشف من معينه الفيَّاض، واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه: فمن مميِّز لما جاء فيه من الاعتزال، ومن مناقش لما أتى فيه من وجوه الإعراب، ومن محش وضَّحَ ونَقَّحَ واستشكل وأجاب، ومن مخرج لأحاديثه عَزَا وأسنْدَ وصَحَّحَ وأنقد، ومن مختصر لَخَّص وأوجز.

ولا أطيل بذكر الكتب التي عَنِيَ فيها أصحابها بهذه النواحى، ويكفى أن أقول: إن من أهم الحواشى على تفسير الكشاف، حاشية العلامة شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى، المتوفى سنة 743 هـ (ثلاث وأربعين وسبعمائة من الهجرة)، وهى تقع في ست مجلدات كباراً، وهى التي أشار إليها ابن خلدون في مقالته السابقة. وقد سماها صاحبها " فتوح الغيب، في الكف عن قناع الريب ".

هذا .. وإن حظوة الكشاف بهذا التقدير والإعجاب حتى من خصومه، وظفره بهذه الشهرة الواسعة التي أغرت العلماء بالكتابة عليه بمثل هذه الكثرة الوافرة الزاخرة من المؤلفات، لدليل قاطع على أنه تفسير في أعلى القمة.

وليس عجباً أن يكون الكشاف كذلك وهو أول كتاب في التفسير كشف لنا على سر بلاغة القرآن، وأبان لنا عن وجوه إعجازه، وأوضح لنا عن دقة المعنى الذي يُفهم من التركيب اللفظى. كل هذا في قالب أدبى رائع، وصوغ إنشائى بديع، لا يتفق لغير الزمخشرى، إمام اللُّغة وسلطان المفسِّرين. وإذا كان الزمخشرى قد تأثر في تفسيره بعقيدته الاعتزالية فمال بالألفاظ القرآنية إلى المعاني التي تشهد لمذهبه، أو تأوَّلها بحيث لا يتنافى معه على الأقل، فإنه في محاولاته هذه قد برهن بحق على براعته وقوة ذهنه، وصوَّر لنا مقدار ما كان

من التأثر بين التفسير وهوى العقيدة، وما كان لنا بعد هذا كله أن نغض الطرف عن هذا التفسير، تأثراً بمذهبنا السُّنِّي، وكراهة لمذهب المعتزلة، وبخاصة بعد ما هو ثابت وواقع من ثناء كثير من علماء أهل السُّنَّة عليه - فيما عدا ناحيته الاعتزالية - واعتماد معظم مفسِّريهم عليه وأخذهم منه. فالكشاف - والحق يقال - قد بلغ في نجاحه مبلغاً عظيماً، ليس فقط لأنه لا يمكن الاستغناء عنه في بيان الأقوال الكثيرة لقدماء المعتزلة، بل لأنه استطاع أيضاً أن يكون معتَرفاً به من الأصدقاء والخصوم على السواء ككتاب أساسى للتفسير، وأن يأخذ طابعاً شعبياً يغرى الكل ويتسع للجميع.

وبهذا ننهي حديثنا عن الزمخشري دون تعليق عليه، تاركين الحديث عنه للمدافعين عن القراءات، الرادين لسهام الطاعنين، فحديثهم عن ذلك فيه الكفاية والنهاية [1].

* * *

(1) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، 4 / 108، مجلة البحوث الإسلامية، 35 /222.